المرجع

أبي بن كعب

رضي الله عنه

من يعرف القرآن.. يعرف كيف تتغير النفوس

«يا أبا المنذر..أي آية من كتاب الله أعظم ؟».

قالها رسول الله ﷺ لأبي بن كعب الذي رفع يده على رأسه وهو يفكر ثم أجاب:

الله ورسوله أعلم يا رسول الله.

وللمرة الثانية يسأله الرسول ﷺ ليدفعه إلى شحذ ذهنه والوصول إلى الإجابة، فيعيد عليه السؤال وهو يبتسم:

«يا أبا المنذر..أي آية من كتاب الله أعظم ؟».

وبعد تفكير، وصل أبي إلى الإجابة هذه المرة وقال:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

ظهرت السعادة على وجه رسول الله ﷺ وهو يربت بيده على صدره قائلا:

«ليهنك العلم يا أبا المنذر».

كان أبي بن كعب من الخمسة والسبعين الذين شهدوا العقبة الثانية، ومنذ ذلك اليوم، ومنذ عودته للمدينة وهو يتذكر جيدا شروط بيعته لرسول الله ﷺ..

فما مرت غزوة إلا وكان فيها مجاهدا في سبيل الله لرفع راية الإسلام..

إلا أن أبي بن كعب كان من القلائل الذين يجيدون الكتابة في المدينة ، ولقد كان قبل إسلامه عالما من علماء اليهود مطلعا على الكتب القديمة، عالما بالتوراة والإنجيل، ويعلم بشارة النبي محمد خاتم المرسلين ﷺ.

ولقد أكسبه علمه مكانة رفيعة مميزة بين المسلمين.. وبلغت ثقة الرسول ﷺ به إلى أن أسند إليه مهمة خطيرة لا تسند إلا إلى رجل أمين مؤمن لا شك في أمانته وإيمانه.

كتابة الوحي..

نعم.. فلقد كان أبي بن كعب من الصحابة الذين أسند إليهم الرسول ﷺ كتابة آيات القرآن العظيم.

يا له من شرف عظيم ويا لها من أمانة كبيرة.

ليس هذا فحسب..

فلقد كان أبي بن كعب من الذين شغفوا بآيات القرآن فتتبعوها آية آية وفهموها وحفظوها.

وكان أبي بن كعب يغلف هذا كله بحسن تلاوتة للقرآن الكريم..

ولقد وصل أبي بن كعب إلى مرحلة من حسن تلاوة القرآن وحفظه وفهمه، ما جعل الرسول ﷺ يفاجئه بشيء لم يكن يتخيله على الإطلاق..

فلقد قال له الرسول ﷺ يوما:

«يا أبي بن كعب..إني أمرت أن أعرض عليك القرآن».

ولأول وهلة لم يصدق أبي أذنيه مما سمع.. فلقد قال له الرسول ﷺ: إن الله أمره أن يعرض القرآن على شخص اختاره الله.. ليكون أبي بن كعب..

أي ثقة من الله في أبي! وأي تقدير من السماء كان!

وهنا حاول أبي تصديق ما سمعه من رسول الله ﷺ فلاحق رسول الله متسائلا:

- يا رسول الله – بأبي أنت وأمي – وهل ذكرت لك باسمي.

فرد الرسول ﷺ وهو يبتسم قائلا:

« نعم.. باسمك ونسبك في الملأ الأعلى »

ربما احتاج أبي بن كعب بعض الوقت لكي يصدق أنه قد وصل إلى هذه المكانة عند الله ورسوله ﷺ.

إن الله يقدر أبيا ويكرمه إلى الدرجة التي تجعل الرسول ﷺ يأمر المسلمين أن يأخذوا القرآن من أربعة.. أبي بن كعب أحدهم:

«خذوا القرآن من أربعة:عبد الله بن مسعود..وسالم مولى أبي حذيفة..وأبي بن كعب... ومعاذ بن جبل».

رفع القرآن من مكانة أبي بين المسلمين درجات ودرجات، فلقد أصبح من أسياد قراء القرآن ومرجعا من مراجعه.

مكانة عظيمة وشرف عظيم، جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عنه:

« أبي سيد المسلمين ».

شهادة أخرى من صحابي عظيم مثل عمر، تضيف إلى رصيد أبي ومكانته الكثير والكثير.

كانت مهمة أبي بن كعب تتطلب أن يكون قريبا من الرسول ﷺ، ملازما له في أكثر الأوقات، وكان هذا دافعا لأن يأخذ منه الكثير والكثير.

تعلم الزهد، وعرف أن طيبات الحياة مهما كثرت، وأن الدنيا مهما أعطت لصاحبها، فإنها لن توزن في النهاية إلا بعمل الخير، وأن التقوى هي ميزان الأعمال، فكان يقول:

«إن طعام ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلا، فإن ماحه وقدحه فانظر ماذا يصير ؟».

وعن جندب بن عبد الله البجلي قال: أتيت المدينة ابتغاء العلم، فدخلت مسجد رسول الله ﷺ فإذا الناس فيه حلق يتحدثون، فجعلت أمضي الحلق حتى أتيت حلقة فيها رجل شاحب عليه ثوبان كأنما قدم من سفر.

فسمعته يقول: هلك أصحاب العقدة ورب الكعبة، ولا آسى عليهم.

أحسبه قال مرارا، فجلست إليه فتحدث بما قضي له ثم قام، فسألت عنه بعدما قام، قلت: من هذا ؟

قالوا: (هذا سيد المسلمين أبي بن كعب)... فتبعته حتى أتى منزله، فإذا هو رث المنزل رث الهيئة، فإذا هو رجل زاهد منقطع يشبه أمر بعضه بعضا...

تعلم حب الرسول ﷺ والتقوى والورع..

قال أبي بن كعب: يا رسول الله ، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك في صلاتي؟

قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير...» قال: الربع؟..... قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير... » قال: أجعل النصف؟...

قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير...» قال: الثلثين؟..... قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير...» قال: أجعل لك صلاتي كلها؟... قال: «إذا تكفى همك ويغفر ذنبك».

وكان يقول:

عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما من عبد على سبيل وسنة، ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار، وليس من عبد على سبيل وسنة، ذكر الرحمن؛ فاقشعر جلده من مخافة الله إلا كان كمثل شجرة يبس ورقها، فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحات عنها ورقها، إلا تحاتت عنه ذنوبه.

تعلم الإخلاص والجرأة في الحق، فكان يهتف بكلمات خالدة أمام أصحابه:

- لقد كنا مع رسول الله ﷺ ووجوهنا واحدة، فلما فارقنا اختلفت وجوهنا يمينا ويسارا.

كان أبي بن كعب يراقب المسلمين كلما ابتعد به الزمن عن أيام الرسول ﷺ..

كان يرى البلاد تتسع والمسلمين يتزايدون..

لكن شيئا ما يحدث..

ربما ظهرت الصراعات، ربما تراجع قول الحق أمام الولاة وأخذ بريق السلطان يأخذ بالألباب..

فكان يقول:

«هلكوا ورب الكعبة..

هلكوا أو أهلكوا..

أما إني لا آسى عليهم ولكني آسى على من يهلكون من المسلمين».

قال رجل لأبي بن كعب: أوصني.

قال: اتخذ كتاب الله إماما، وارض به قاضيا وحكما، فإنه الذي استخلف فيكم رسولكم، شفيع مطاع، وشاهد لا يتهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبركم، وخبر ما بعدكم.

ولقد أكرمه الله باستجابة الدعوة حتى إن عمر بن الخطاب كان يطلب منه الدعاء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر بن الخطاب: «اخرجوا بنا إلى أرض قومنا».

قال: فخرجنا فكنت أنا وأبي بن كعب في مؤخرة الناس، فهاجت سحابة، فقال أبي: (اللهم اصرف عنا أذاها)... فلحقناهم وقد ابتلت رحالهم.

فقال عمر: أما أصابكم الذي أصابنا؟... قلت: إن أبا المنذر دعا الله عز وجل أن يصرف عنا أذاها... فقال عمر: ألا دعوتم لنا معكم؟!...

كانت حياة أبي بن كعب مع القرآن حياة خاصة..وكانت مشاعره تعيش معه وتشعر بحروفه وتتأثر به..

وكيف لحامل القرآن ألا تخشع جوارحه عند تلاوة آيات الله؟!

وكيف لكاتب الوحي الذي كان يتسلم الآيات فيخطها بيديه ليحفظها للعالمين ألا يبكي عند تلاوتها؟!

كانت آيات القرآن تهزه هزا..وكانت معانيه لا تتركه إلا إذا دعته إلى التفكير والتأمل.

وكانت آية من القرآن لا يقرؤها، إلا وقد اعتلاه الهم وأصابه الأسى..

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥].

أكانت نظرة أبي بن كعب ثاقبة إلى هذا الحد؟!

أكان يخشى اليوم الذي يأتي فيه المسلمون وهم يتناحرون ويتقاتلون و يتخاذلون وينهزمون كل يوم وكل ساعة؟!

أكان يخشى على المسلمين من يوم يتفرقون فيه ويذيق بعضهم بأس بعض، تاركين أعداءهم

ينظرون إليهم فاغرين أفواههم في زهو وسخرية؟!

لقد أتى اليوم يا أبي.

أتى.. ولا نعرف متى سينتهي؟!

وفي العام الثلاثين من الهجرة..

خرج المئات من الناس في شوارع المدينة، فقابلهم غريب اسمه «عتي السعـدي»..

فقال متسائلا في دهشة: ما لي أرى الناس يموج بعضهم في بعض؟!

فقالـوا: أما أنـت من أهل هذا البلـد؟

قلت: لا...

قالوا:

مات اليـوم سيد المسلمين، أبي بن كعب.

وداعا يا أبي..

وداعا إلى اليوم الذي لا نجد فيه المسلمين يذيق بعضهم بأس بعض.

* * *

دروس وتحليل

١ - التعليم بأسلوب توجيه الأسئلة وإيجاد المشكلة طريقة فعالة في التواصل بين المدرس والتلميذ (الرسول ﷺ يسأل أبيا بن كعب عن أعظم آية في كتاب الله).

تعد وسيلة عرض المشكلة على الطلبة من أكثر الوسائل فعالية في التعليم، فهى تدفع الطالب للتفكير في حل المشكلة مما ينشط لديه عملية البحث والابتكار واتخاذ القرار، في الوقت الذي يعد فيه مبدأ التلقين من أسوأ وسائل التعليم، فهو وسيلة توقف التفكير وتقتل القدرة على البحث والإبداع.

٢ - العلم أحد الوسائل القوية لخدمة الإسلام بشرط أن تكون مراقبة بالحلال والحرام، والعداء ضد الإسلام الآن العلم هو سلاحه الأول (الرسول ﷺ يستخدم تعلم أبي بن كعب الكتابة في كتابة الوحي).

تخيل لوأن الرسول ﷺ لم يجد أحدا من المسلمين الثقات لكتابة آيات القرآن الكريم التى تنزل عليه من السماء، كيف كان سينتقل القرآن إلى الأجيال التى تبعت الرسول ﷺ، وكيف سيظل كلام الله باقيا دون تحريف طيلة قرون وقرون بعد وفاة الرسول ﷺ.

إن الإسلام لا يمكن أن يقوى إلا بالعلم، ولقد أصبح العلم هوالسلاح الأول الذي جعل المسلمين في قبضة أعدائهم، بعد أن تفوق فيه الغرب تفوقا مذهلا، واستطاعوا أن يستخدموه في تقوية فكرتهم وبناء حضارتهم، في الوقت الذي وصلت فيه البلاد العربية والإسلامية إلى قاع القاع في التخلف العلمى، بعد أن أصبحت الشعوب لا تؤمن بأهمية العلم إلا من أجل الوجاهة الاجتماعية واحتمالية الالتحاق بالوظيفة من خلاله، أما نوابغ العلم، فلا تلبث أن تصيبهم صدمة تجاهل بلادهم لهم، حتى يتخذوا قرارهم بالرحيل إلى أمريكا أوأوروبا، ليكون أداة فعالة في استكمال مشروع الغرب الحضاري.

إن الطالب لا يؤمن بالعلم، ولا المدرس ! والمسئولون عن التعليم يسحبون التعليم إلى الوراء، ووصلنا جميعا إلى مرحلة أننا لا نعرف ماذا نفعل! ولماذا نفعل ما نفعله ! وماذا نريد مما نفعله!، واستسلمنا لوضع بائس، يجبرنا على أن نسير في الطريق دون أن نعرف إلى أين سنصل !

٣- الإسلام يرفع قيمة المجتهدين علميا و يرفع من شأنهم في المجتمع (الرسول ﷺ يدعوالمسلمين أن يأخذوا القرآن من أربعة، أحدهم أبي بن كعب).

كان أبي بن كعب من المجتهدين في حفظ القرآن، ولقد حرص على ملازمة الرسول ﷺ حتى يأخذ منه على قدر ما يستطيع، وكان اجتهاده هذا دافعا للرسول ﷺ لأن يجعله مرجعا للقرآن عند المسلمين من بين أربعة اختارهم لهذا الشأن.

إن الإسلام يرفع قيمة المجتهدين علميا، و يقدرهم ويدعوالمجتمع إلى تقديرهم ووضعهم في الصف الأول، ويستخدمهم في خدمة الإسلام وبناء حضارته وازدياد قوته.

نحن نرفع الآن شخصيات لا علاقة لها بخدمة الأمة ونهضتها وتقدمها، بل لها علاقة مباشرة

بتأخرها وتخلفها وإلهاء شبابها عن القضايا الجادة. فطبيعى أن تهمل الشخصيات المجتهدة والفاعلة في حركة التقدم ، فالشباب أصبح لا يريدها.. بعد أن استقرت أهدافه على الترفيه إلى آخر نفس.

٤- الإسلام يريد للإنسان أن تكون الدنيا في يده لا في قلبه (أبي بن كعب كان يخاف على المسلمين من إقبال الدنيا عليهم بازدياد الفتوحات وإمارة الدول).

كان تخوف الصحابة من الدنيا كبيرا؛ لأن الدنيا إذا فتحت ذراعيها للإنسان، فإنها تشده إليها شدا عنيفا، وسيقع المسلم في حبالها، إن لم يكن قادرا على التماسك، و كثيرا ما يقع فريسة لها متناسيا مبادئه التى طالما نادى بها، ويبدأ في مرحلة تأليف المبررات والدوافع والأسباب التى جعلته يتغير.

إن أصعب ما في الإسلام أنه لا يدعوالى العزلة، وفي نفس الوقت لا يدعوالى اللهث وراء الدنيا، فرسالة الإسلام هى تعمير الأرض وإرساء قواعد الحق والعدل فيها، وليس شرطا لتقوم بذلك أن تكون حاكم دولة، بل هى رسالة من الممكن أن يقوم بها الطبيب والمهندس والمزارع والمدرس والعامل البسيط..إلخ ، كل في عمله، فالمبادئ واحدة ولكن المجال يختلف. والإسلام يريدك أن تتقدم تقدما مذهلا في عملك وتتفوق إلى أقصى درجة، دون أن تنسى لماذا تفعل ذلك وماذا تريد منه، فعندما يكون هدفك الأخير والأعلى هو إرضاء الله ونيل الثواب وتحسين صورة الإسلام وإقرار مبادئه بصورة عملية .. تكون قد أصبت. وعندما يكون الهدف هوالشهرة والفخر تكون الدنيا قد أخذتك في طريق آخر.. ستخسر فيه أكثر مما ستكسب.

٥- ارتباطنا بالقرآن وصل إلى أضعف مرحلة (أبي بن كعب كان يتأثر بالقرآن تأثرا شديدا).

القرآن له أسلوب عجيب في تغيير النفوس، وله تأثير ساحر في إنزال الطمأنينة على النفس وجعلها في حالة استقبال لكل ما هو نافع، والنفور من كل ما هو خبيث.. ولقد كان لكلمات القرآن وحدها الأثر الكبير في إسلام الكثيرين في بداية الدعوة..

إلا أن هذا القرآن تعرض لجفاء عجيب من المسلمين، فالقرآن هوالكتاب الأول من حيث العدد في العالم، إلا أن هناك من الشباب المسلم من تمر عليه سنوات دون أن يفتحه، وهناك من يهرب من قراءة القرآن بحجة أنه يخاف أن يخطئ في قراءته، وهناك من يقرؤه في المواسم والمواقف الخاصة، وهناك من يمر عليه مرور الكرام كل فترة.

لقد فقدنا الاتصال بالقرآن، وفقدنا الإحساس بالقرآن، وعنينا بحفظ القرآن أكثر من فهمه والشعور بالإيمانيات المتدفقة من بين كلماته..

اتصالنا بالقرآن أصبح أضعف ما يمكن، فأصبح تأثيره فينا أضعف ما يمكن..

نريد أن نبدأ في صنع صلة قوية بالقرآن، نبدؤها بالقراءة حتى وإن أخطأنا، ثم نعقبها بالفهم والقراءة به في الصلاة، وأوقات الفراغ ووسائل المواصلات، ثم نعقب ذلك بالتطبيق العملي له في حياتنا العامة.

هكذا يغيرنا القرآن، وهكذا نتأثر ونتغير بالقرآن.